

بين خروفين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

اجتمع ليلة الأضحى خروفان من أضحى العيد، فتكلمتا؛
فإذا يقولان؟

هذا هو الموضوع الذي استخرجه لي أصغر أولادي
(الأستاذ) عبد الرحمن، وسألني أن أكتب فيه للرسالة، وهو
أصغر قرائها سنًا ترفُّ عليه النسمة الثالثة عشرة من ربيع
حياته — بارك الله لها فيها حاضرة ومُقبلة

ولأستاذنا هذا كلمة هي شعاره الخاص به في الحياة،
يحفظها لتحفظه، فلا يميل عن مدرَّجتها، ولا يخرج من
منها؛ وهي هذه الكلمة العربية: «كالفرس الكريم في
مبيعة حضره»^(١)، كلما ذهب منه شوطٌ جاء شوطٌ.
فهو يعلم من هذا أن كرم الأصل في كرم الفعل، ولا يعني شيء
منهما عن شيء؛ وأن الدم الحرُّ الكريم يكون مضاعفَ القوة
بطبيعته، عظيمَ الأمل بهذه القوة المضاعفة، نزاعاً إلى سبق
بمقدار أمله العظيم، مترفعاً عن الضمف والمُؤنينا بهذا النزوع،
متبذراً في نبوغ عمله وإبداعه باجتماع هذه الخصال فيه على أتمها
وأحسنها. فمن ثم لا يرى الحرُّ الكريم إلا أن يبلغ الأمد
الأبد في كل ما يحاوله، فلا يألو أن يبذل جهده إلى غاية الطاقة
ومبلغ القدرة، مستمداً قوةً بعد قوة، محققاً السحر القادر
الذي في نفسه، متلقياً منه وسائل الإعجاز في أعماله، مُرسلاً
في نبوغه من توهج دمه أضواء كأضواء النجم، تُثبت لكل
ذي عينين أنه النجم لا شيء آخر

ولما قدَّم إلى (الأستاذ) موضوعه في هذا الوزن المدرسي
— وأظنه قد تزعته حاجةٌ مدرسيةٌ إليه — قلتُ: «جأ
وكرامة. وهأنذا أكتبه منبثاً فيه كالفرس الكريم في مبيعة
حضره»... ولعل الأستاذ حين يقرؤه لا يشودُّ فيه
علامات كثيرة بقلمه الأحمر...!

اجتمع ليلة الأضحى خروفان من الأضحى في دارنا: أما
أحدُهما فكبشٌ أقرنٌ، يحملُ على رأسه من قرنيه العظيمين
شجرة السنين، وقد انتهى رسمُه حتى تفاق جلدُه بلحمه،
وسح بدنه بالشحم سحاً، فاذا تحرك خلتُه سحابةً يضطربُ
بعضها في بعض، ويهتز شيء منها في شيء؛ وله وإفردة^(١)
يجرها خلفه جزاً، فاذا رأيتها من بعيد حسبتها حملاً يتبع
أباه؛ وهو أصوفٌ، قد سبغ صوفه واستكف وترأكم
عليه؛ فاذا مشى تبخترَ فيه تبخترَ الغانية في حُلَّتْها، كأنما
يشعر مثل شعورها أنه يلبسُ مسرات جسمه لا ثوب جسمه؛
وهو من اجتماع قوته وجبروته أشبه بالقلمة يعلوها من هامته
كالبرج الحربي فيه مدفمان بارزان. وراه أبدأ مُصمراً خده
كأنه أمير من الأبطال، إذا جلس حيث كان شعر أنه جالسٌ
في أمره ونهيه، لا يخرج أحدٌ من نهيه ولا أمره

وأما الآخر فهو جذعٌ في رأس الحول الأول من مولده،
لم يدرك بعد أن يضحى، ولكن جرى به للقرم إلى لحمه
النض؛ فالأول أضحيةٌ وهذا أكوثةٌ؛ وذلك يتصدق
بلحمه كله على الفقراء، وهذا يتصدق بشئيه ويبقى الثالثُ
طعاماً لأهل الدار

وكان في لينه وترَّجُرْجه وظرف تكوينه وسرح طبعه،
كأنما يُصورُ المرأةَ آنسةً رقيقةً مُتوددةً. أما ذلك الضخمُ
العاني التجبر الشامخ، فهو صورة الرجل الوحشي أخرجته
الغابة التي تخرج الأسدَ والحيةَ وجذوعَ الدوحة الضخمة،
وجملت فيه من كل شيء منها شيئاً يخاف ويتقى

وكان الجذع يشغوب لا ينقطع شفاؤه، فقد أخذ من
قطيعه انزعاً فأحسن الوحشة وتنبت فيه غريزة الخوف
من الذئب، فزادته إلى الوحشة قلقاً واضطراباً؛ وكان لا يستطيع
أن ينفلت، فهو كأنما يهرب في الصوت ويمدو فيه عدواً

أما الكبشُ فيرى مثل هذا مسببةً لقرنيه العظيمين،
وهو إذا كان في القطيع كان كبشته وحاميه والمقدم فيه،
فيكون القطيع معه وفي كنفه ولا يكون هو عند نفسه مع
القطيع؛ فاذا فقد جماعته لم يكن في منزلة المنتظر أن يلحق

(١) آية عظيمة ويقال كبش ألبان إذا كان عظيم الألية

(١) هذا كما يقال بالعامية: في مزجره

بغيره ليحتمى به فيقلق ويضطرب ، ولكنه في منزلة المرتقب
أنت يلحق به غيره طلباً لحمايته وذمارة ، فهو ساكن رابط
الجأش معتبط النفس ، كأنما يتصدق بالانتظار . . .

فلما أدير النهار وأقبل الليل ، جرى للخروفين بالكلام من
هذا الرسم بمتلفاته ، فأحس الكبش أن في الكلام شيئاً
لم يدبر ما هو ، وانقبضت نفسه لما كانت تنبسط إليه من قبل ،
وعمرته كآبة من روحه ، كأنما أدركت هذه الروح أنه آخر
رزقه على الأرض ، فانكسر وظهر على وجهه معنى الذبح قبل
أن يُذبح ، وعاف أن يطعم ، ورجع كأول فطامه عن أمه
لا يعرف كيف يأكل ، ولا يتناول من أكله إلا أدنى تناول
وأنما جثم الظلام على شحمه ولحمه ؛ فانه متى ثقل الهم
على نفس من الأنفس ثقل على ساعتها التي تكون فيها ، فتطول
كآبئها ويطول وقتها جميعاً . فأراد الكبش أن يتفرج مما
به ، ويُنفس عن صدره شيئاً ، وكان الصغير قد أيس إلى
المكان والظلمة ، وأقبل يمتلف ويخضم الكلام ، فقال له
الكبش : أراك فارهاً يا ابن أخي ، كأنك لا تجد ما أجد ؛ إني
والله أعلم علماً لا تعلمه ، وإني لأحس أن القدر طريقه علينا في
هذه الليلة ، فهو مُصنِّعنا ما من ذلك بُدْ

قال الصغير : أتني الذئب ؟

قال : ليته هو ، فأنا لك به لو أنه الذئب ؛ إن صوفي هذا
درع من أظافره ، وهو كالشبكة ينسب فيها الظفر ولا
يتخلص ، ومن قرني هذين ترس ورمح ، فأنا واثق من إحراز
نفسى في قتاله ، ومن أحرز نفسه من عدوه فذاك قتل عدوه ،
فان لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة ، وذاك عند الأبطال فن من القتل .
وهذا القرن اللتف الأبعد المذرب كالسنان ، لا يكاد يراه الذئب
حتى يعلم أنه حاطمة عظامه ، فيحدث له من الفرع ما تنجل
به قوته ، فما يواثبني إلا متخادلاً ، ولا يُقدم على إلا توهم
الذئبية للخروافية ، فان أساس القوة والضعف كليهما في
السوس والطبيعة ، غير أنه لا يعلم أني خرجت من الخروفية إلى
الجاموسية . . . ! فإي بئس ذلك إلا بقصر بطنه أو التطويح به
من فوق هذا القرن ، أقدفه قذفة عالية تلقيه من حلق ، فتدق

عظامه وتحطم قوائمه !

قال الصغير : فماذا تخشى بعد الذئب ؟ إن كانت العصا فهي
إنما تضرب منك الصوف لا الظهر

قال الكبش : ويحك ! وأي خروف يخشى العصا ؟ وهي
إنما تكون عصا من يعلفه ويرعاه ، فهي تنزل عليه كما تنزل على
ابن آدم أقدار ربه ، لاحطاً ولكن نادياً أو إرشاداً أو تهويلاً ؛
ومن قبلها النعمة وتكون معها النعمة ونجى . بعدها النعمة ؛
أفيلغ الكفر منا ما يبلغ كفر الانسان بنعمة ربه ؛ إذا أنتم عليه
أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر انطلق ذا صراخ عريض ؟
وكيف تراني (ويحك) أخشى الذئب أو العصا ، وأنا من
سلالة الكبش الأسمى ؟

قال الصغير : وما الكبش الأسمى ، وكيف علمت أنك
من نجله ، ولا علم لي أنا إلا هذا الكلام واللف والملاء ،
والسراح والمقدي ؟

قال الكبش : لقد أدركت أمي وهي نمجة قحمة كبيرة ،
وأدركت معها جدتي وقد أفرط عليها الكبر حتى ذهب قهما ،
وأدركت معهما جدتي وهو كبش هرم متقدد أعرج كأنه
عظام مغطاة ، فمن هؤلاء أخذت ورويت وحفظت

حدثني أمي ، عن أبيها ، عن أبيه ، قالت : إن نحر جنسنا
من النعم يرجع إلى كبش الفداء الذي فدى الله به إسماعيل بن
إبراهيم عليهما السلام ، وكان كبشاً أبيض أقرن أعين ،
اسمه حرير

(قال) . واعلم يا ابن أخي أن مما انفردت أنا به من العلم فلم
يدركه غيري ، أن جدنا هذا كان مكسواً بالحرير لا بالصوف ،
فذلك سمى حريراً . . . (قالت أمي) : والمحفوظ عند علمائنا أن
ذاك هو الكبش الذي قرّبه هايل حين قتل أخاه لتم البلية على
هذه الأرض بدم الانسان والحيوان معاً (قالوا) : فتقبل منه
وأرسل الكبش إلى الجنة فبقى رعى فيها حتى كان اليوم الذي
هم فيه إبراهيم أن يذبح ابنه تحقيقاً لرؤيا النبوة ، وطاعة لما ابتلى
به من ذلك الامتحان ، وليثبت أن المؤمن بالله إذا قوى إيمانه
لم يجزع من أمر الله ولو جبر السكين على عنق ابنه ، وهو إنما
يجرها على ابنه وعلى قلبه !

(قالت) فهذا هو نحر جنسنا كله

أما نحر سلاتي أنا ، فذاك ما حدثتني به جدتي ، ترويه عن أبيها عن جدها ، وذلك حين توسمت في مخايل البطولة ، ورجت أن أحفظ التاريخ . قالت : إن أصلنا من دمشق ، وإنه كان في هذه المدينة رجل سباع ، قد اتخذ شبل أسد فرباه وراضه حتى كبر ، وصار يطلب الخيل ، وتأذى به الناس ، ف قيل للأمير (١) : هذا السبع قد آذى الناس ، والخيل تنفر منه وتجد من ريحه ريح الموت ، وهو ما يزال رابضاً ليله ونهاره على سدة بالقرب من دارك . فأمر بجاء به السباع وأدخله إلى القصر ، ثم أمر بحروف مما اتخذ في مطبخه للذبح ، وأدخلوه إلى قاعة ، وجاء السباع فأطلق الأسد عليه ، واجتمعوا يرون كيف يسطوبه ويفترسه

قالت جدتي : حدثني أبي ، قال : حدثني جدك : أن السباع أطلق الأسد من ساجوره (٢) وأرسله ، فكانت المعجزة التي لم يفسر بها حروف ولم تؤثر قط إلا عن جدنا ، فانه حسب الأسد خروفاً أججم لا قرون له ، ورأى دفة خصره ، وضمور جنبه ، ورأى له ذيلاً كالألية المفرغة الميتة ، فظنه من مهازيل الغم التي قتلتها الجدب ، وكان هو شيمان ريان ، فما كذب أن حمل على الأسد ونطحه ، فانهزم السبع مما أذهله من هذه المفاجأة ، وحسب جدنا سبماً قد زاده الله أسلحة من قرنيه ، فاعتراه الخوف وأدبر لابلوى . وطمع جدنا فيه فاتبعه ، وما زال يطارده وينطحه ، والأسد يفر من وجهه ويدور حول البركة ، والقوم قد غلبهم الضحك ، والأمير ما يملك نفسه إعجاباً ونحراً بجدنا فقال : هذا سبع لثيم ، خذوه فأخرجوه ، ثم اذبحوه ، ثم اسلخواه . فأخذ الأسد وذبح ، وأعتق جدنا من الذبح ، وكان لنا في تاريخ الدنيا انسابها وحيوانها أران عظيمان ، فجدنا الأول كان فداء لابن نبي ، وجدنا الثاني كان الأسد فداءه !

(١) هذه القصة شهدها الأمير الأدب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة ، وقصها في كتابه (الاعتبار) ، والأمير المذكور في القصة هو (ميين الدين أُر) وزير شهاب الدين محمود . وقد تصرفنا في عبارة القصة

(٢) الاجور : سلة الأسد والكلب ونحوهما

قال الصغير للكبيش : قلت : الذبح ، والفداء من الذبح ؛ فما الذبح ؟

قال الكبيش : هذه السنة الجارية بمد جدنا الأعظم ، وهي الباقية آخر الدهر ؛ فينبني لكل منا أن يكون فداء لابن آدم ؛ قال الصغير : ابن آدم هذا الذي يخدمنا ويحترق لنا الكلاء ، ويقدم لنا العلف ، ويعشى وراءنا فنسجبه إلى هنا وهناك . . . ؟

تالله ما أظن الدنيا إلا قد انقلبت ، أو لا ، فأنت يا أبا جدتي . . . قد كبرت وأخرفت !

قال الكبيش : ويحك يا أبله ! متى تتحلل هذه العقدة التي في عقلك ؟ انك لو علمت ما أعلم لما اطمانت بك الأرض ، ولرجمت من القلق والاضطراب كعبة القمح في غربال يهترق وينتفض !

قال الصغير : أتمنى ذلك الغربال وذلك القمح وما كان في القرية ، إذ تناولت زبة الدار غربالها تنفض به قمحها ، ففانطها ونطحت الغربال فانقلب عن يدها وانتثر الحب ، فأسرعت في التقاطها حتى ملأت في قبل أن تزيحني المرأة عنه ؟

فهز الكبيش رأسه فسلم من يريد الابتسام ولا يستطيعه ، وقال : أرايت حانوت القصاب ونحن نمر اليوم في السوق ؟

قال : وما حانوت القصاب ؟

قال : أرايت ذلك السليخ من التسم البيض المعلقة في تلك الممايق لا جلد عليها ولا صوف وليس لها أروؤس ولا قوائم ؟

قال الصغير : وما ذلك السليخ ؟ إنه إن صح ما حدثتني به عن أمك ، فهذه نعم الجنة ، تبيت نزعى هناك ثم تجيء إلى الأرض مع الصبح ، وإن لترقب شمس القد ، لأذهب فأراها وأملأ عيني منها

قال : اسمع أيها الأبله ! إن شمس القد تستشعر بها من تحتك لا من فوقك . . . ! لقد رأيت أخي مذ كنت جدعاً مثلك ؛ ورأيت صاحبنا الذي كان يلفه ويسمته ، قد أخذه ، فاضطجعه ، فجثم على صدره ثم من الذئب ، وجاء بشفرة بيضاء لامعة ، فجراها على حلقه ، فاذا دمه يشخب ويتفجر ، وجمل السكين ينتفض ويدحص برجله ، ثم سكن وبرد ؛

الشباب تلك الحكمة ، وهو من قوة النفس بحيث لا يبالي الموت ، فضلاً عن المرض ؟

لو أُذِنَ الشاب من الفتيان بيوم انقطاع آجله ، وعلم أنه مُصْبِحُهُ أو مُمْسِيهِ ، لأمدته نفسه بأرواح السنين الطويلة حتى يرى أن صبح الندد كأنما يأتي من وراء ثلاثين أو أربعين سنة ، فما يَتَبَيَّنُهُ إلا كالفكر المنسى مضي عليه ثلاثون سنة أو أربعين . ولو أُذِنَ الشيخُ بيوم مَصْرَعِهِ ، وأيقن أن له مُهْلَةً إلى تمام الحول ، لطار به الذُّعْرُ واستفرَّغَ الوَجَلُ من ساعته ورأى يومه البعيد أقرب إليه من الصبح ، وابتلته طبيعة جسمه المختلِّ بالوساوس الكثيرة ، تجتلبها له كما تجتلب الرياحُ صُدُوعَ المنزل الخرب . فذاك بالشباب يقبض على الزمن ، فيعيش في اليوم القصير مثل العام رَخِيحاً ممدوداً ، فهو رابطة جلد ؛ وهذا بالكبر يقبض الزمن عليه ، فيعيش في العام الطويل مثل اليوم متلاحقاً آخره بأوله ، فهو قَلِيْقٌ طائر . ولا طبيعة للزمن إلا طبيعة الشمور به ، ولا حقيقة للأيام إلا ما تضمه النفس في الأيام

ثم إن الكبش نظر فرأى الصغير قد أخذته عينه واستشقلَ نوماً ، فقال : هنيئاً لمن كان فيه سرُّ الأيام الممدودة . إن هذا السر هو كبير النبات الأخضر ، لا يُقَطَّعُ من ناحية إلا ظهر من غيرها ساخرأ هازناً ، قائلاً على المصائب : هأنذا .. فهذا الصغير ينام ملء عينيه والشفرة محدودة له ، والذبح بعد ساعات قليلة ؛ كأنما هو في زمنين أحدهما من نفسه ، فيه ينام ، وبه يلهو ، وبه يسخر من الزمن الآخر وما فيه وما يجلبه إن الألم هو فهم الألم لا غير . فما أقبج علم العقل إذا لم يكن معه جهل النفس به وإنكارها إياه . حسنب العلم والعلماء في السخرية بهم وبه هذه الحقيقة من النفس . أنا لو ناطحتُ كيثاً من قُرُوم الكباش ، ووقفتُ أفكر وأدبر وأأمل ، وأعتبر شيئاً بشيء - ذهب فكري بقوتي واسترخى عصبى وتحلل غضبي كله وكان العلمُ وبالأعلى ؛ فإن حاجتي حينئذ إلى الروح وقواها وأسبابها أضاعُ حاجتي إلى العلم . والروح لا تعرف شيئاً اسمه الموت ، ولا شيئاً اسمه الوجود ؛ وإنما تعرف حظيها

فقام الرجل ففصّل عنقه ، ثم نحس في جلده ونفخه حتى تطبّل ورجع كالقربة التي رأيتها في القرية مملوءة ماء فسبها أمسك ؛ ثم شقّ فيه شقاً طويلاً . ثم أدخل يده بين الجلد والصفاق ، ثم كشطه وسحبت الشحم عن جنبه ، فماد السكين أيضاً لاجلده ولا صوف عليه ، ثم بقر بطنه وأخرج ما فيها ، ثم حطم قوائمه ، ثم شده فملقه فصار سليخاً كفنم الجنة التي زعمت ! وهذا - أيها الأبله - هو الذبح والسليخ ! قال الصغير : وما الذي أحدث هذا كله ؟

قال : الشفرة البيضاء التي يسمونها السكين !

قال الصغير : فقد كانت الشفرة عند حلقه حيال فمه ؛ فلماذا لم ينزعها فياً كلها ؟

قال الكبش : أيها الأبله الذي لا يعلم شيئاً ولا يحفظ شيئاً ، لو كانت خضراء لأكلها !

قال : وما خطب أن تجيء الشفرة على الضيق ، أفلم يكن الحبل في عنقك أنت جعلت تجاذب فيه الرجل حتى أعينته ، ولولا أني مشيت أملك لما انقادت له ؟

قال الكبش : ما أدري والله كيف أفهمك أن هذا كله سيجرى عليك ، فسترى أموراً تنكرها ، فتعرف ما الذبح والسليخ ، ثم نصير أشلاء في القدور تُضرم عليها النار ، فياً كلك ابن آدم كما تأكل أنت هذا الكلال . . . !

قال الصغير : وماذا على أن يأكلني ابن آدم ، ألا ترائي آكل المُشَبِّب ، فهل سمعتَ عوداً منه يقول : الرجل والسكين ، والذبح والسليخ . . . ؟

قال الكبش في نفسه : كعمري إن قوة الشباب في الشباب أقوى من حكمة الشيوخ في الشيوخ ، وما نفع الحكمة إذا لم تكن إلا رأياً ليس له ما يُمضيه ، كراي الشيخ الفاني ؛ يرى بعقله الصواب حين يكون جسمه هو الخطأ مركباً في ضمفه غلطة على غلطة لا عُضواً على عضو . . . ؟ وهل الرأي الصحيح للمأم الذي نميش فيه إلا بالجسم الذي نميش به ؛ وما جدوى أن يعرف الكبير حكمة الموت ، وهو من الضعف بحيث تنكسر نفسه للمرض الهين ، فضلاً عن المرض المُعْضِل ، فضلاً عن المرض المُزْمِن ، فضلاً عن الموت نفسه ؛ وما خطرُ أن يجهل

الظلمة المُتدَجِيَّةَ على الأرض ، وهو لحقه يظن أنه ينطح الليلَ
بقرنيه ويرحزحُه

وكم قال لي ذلك الجد الحكيم وهو يعظني : إن الحيوان منا
إذا جمع على نفسه هماً واحداً صار بهذا الهم إنساناً نسيماً شقيماً ،
يُعطي الحياةَ فيقلبها بنفسه على نفسه شيئاً كاللوت ، أو موتاً بلا
شيء !

وتحرك الصغير من نومه ، فقال له الكبش : إنه ليقع في
قلبي أنك الساعة كنت في شأنٍ عظيم ، فما بالك منتفضاً وأنت
ههنا في الشجر لا في المرعى !

قال الصغير : يا أبا جدتي . . . لقد تحققت أنك هربت
وخرفت ، وأصبحت تَمِجُ اللُغابَ والرأى !

قال الكبش : فماذا بك ويلك ؟

قال : إنك قلت : إن هذا الانسان غادر علينا بالشفرة
البيضاء ، ووصفت الذبح والسلخ والأكل ؛ وأنا الساعة قد
نمتُ فُرايتُ فيما أرى ، أنني نطحتُ ذلك الرجل الذي جاء بنا
إلى هنا ، وهجرتُ به حتى صرعتُه ، ثم إنى أخذتُ الشفرةَ
بأسناني ، فنلثتُه في نحره حتى ذبحته ، ثم انتلذتُ منه مُضغَةً
فلكسيتها في فمي ؛ فما عرفت والله فيما عرفت نلثنا ولا عفننا
في الكلا هو أقيح مذاقاً منه !

إن الانسان يستطير لحنا ويتغذى بنا ويميش علينا ؛ فما
أسعدنا أن نكون لغيرنا فائدةً وحياة ، وإذا كان الفناءُ سعادةً
نعطيها من أنفسنا ، فهذا الفناءُ هو سعادةٌ نأخذها لأنفسنا .
وما هلاكُ الحيِّ لقاءً منفعةً له أو منفعةً منه إلا انطلاقُ الحقيقةِ
التي جعلته حياً ، صارت حرةً فانطلقت تَمَلُّ أفضلَ أعمالها
قال الكبير : لقد صدقتُ والله ، ونحن بهذا أعقلُ وأشرفُ
من الانسان ؛ فانه يقضي العمرَ أخذاً لنفسه ، متكالباً على حظها
ولا يعطي منها إلا بالقهر والتلجبة والخوف . تمالَ أيها الذابح ،
تمالَ خذ هذا اللحم وهذا الشحم ؛ تمالَ أيها الانسانُ لتعطيك ،
تمالَ أيها الشحاذُ !

للغزير في

طنطا

من اليقين ، وهدوءها بهذا الحظ ، واستقرارها مؤمنةً مادامت
هادئةً مستيقنةً

وقد والله صدق هذا الجدُّ الصغير ؛ فما على أحدنا أن
يأكله الانسان . وهل أكلنا نحن هذا العُشبَ ، وأكلُ
الانسان إياه ، وأكلُ الموتِ للانسان - هل كل ذلك إلا
وضعٌ للخاتمة في شكل من أشكالها ؟

يُشبهُ والله إن أنا احتججتُ على الذبح وانتمتُ له أن
أكون تكروف أحق لا عقل له ، فظنَّ إطعامَ الانسان إياه من
باب إطعامه ابنته وابنته وامرأته ومن يجب عليه نفقته ؛ وهل
أوجبَ نفقتي على الانسان إلا لحي ؟ فإذا استحقَّ له فلمعري
ما يبني لي أن أزعم أنه ظلمني اللحم إلا إذا أقررتُ على نفسي
بدياً أني أنا ظلمتُه السلفَ وسرقته منه

كلُّ حيٍّ قائمٌ هو شيءٌ للحياة أعطيتها على شرطها ،
وشرطها أن تنتهي ؛ فسعادته في أن يعرف هذا ويقررَ نفسه
عليه حتى يستيقنه كما يستيقنُ أن المطر أول فصل الكلا الأخضر .
فإذا فعل وأيقن وإطمان ، جاءت النهاية متممةً له لا ناقصة إياه ،
وجرت مع العمر مجرى واحداً وكان قد عرفها وأعد لها . أما
إذا حسب الحيُّ أنه شيءٌ في الحياة ، وقد أعطيتها على شرطه هو ،
من توهم الطمع في البقاء والنعيم ، فكلُّ شقاء الحي في وهمه
ذاك وفي عمله على هذا الوهم ؛ إذ لا تكون النهاية حينئذ في
بهيئتها إلا كالعقوبة أزلت بالمركلة ، ونجى هادمة منقصة ،
ويبلغ من تنكيدها أن تسبقها آلامها ؛ فتؤلم قبل أن تنجي .
شراً مما تؤلم حين تنجي .

لقد كان جدتي والله حكيماً يوم قال لي : إن الذي يعيش
مترقباً النهايةَ يعيش مُمدأها ؛ فان كان معداً لها عاش راضياً بها ،
فان عاش راضياً بها كان عمره في حاضرٍ مستمرٍ ، كأنه في ساعةٍ
واحدة يشهد أولها ويحس آخرها ، فلا يستطيع الزمن أن ينقص
عليه مادام يتقاد معه وينسجم فيه ، غيرَ محاول في الليل أن
يبعد الصبح ، ولا في الصبح أن يبعد الليل . قال لي جدتي :
والانسان وحده هو التمس الذي يحاولُ طردَ نهايته ، فيشق
شقاء الكبش الأخرق الذي يريد أن يطرد الليل ، فيبيت ينطح